الأكاديمية العربية الدولية

الأكاديمية العربية الدولية

المقررات الجامعية

www.aiacademy.info | care@aiacademy.info

http://www.al-maktabeh.com

الفصل الأول

مقدمة

الاستبس وتاريخ المغول

تحكم في امتداد شمال القارة الاسيوية وانعزالها ، ما كان من التقاء سلسلتى جبال التوائيتين ضخمتين ، السلسلة الاولى جبال تيان شان والتاى ، بينما تؤلف جبال الهملايا السلسلة الثانية • فجبال تيان شان والتاى في الشمال الغربى ، يواجهها في الجنوب جبال هملايا ، تطوقان فيما بينهما تركستان ومنغوليا وتعزلهما أيضا ، فبقيتا قائمتين فوق السهول التى تقع في داخل الدائرة ، التى يؤلف محيطها هذه السلاسل الجبلية •

وجبال تيان شان سلسلة ضخمة ، يتفاوت ارتفاعها عن سطح البحر بين ١٥ ألف ، ٢٠ ألف قدم ، وقد يصل ارتفاع بعض قممها الى ما يزيد على ٢٥ ألف قدم • ويبلغ طولها نحو ١٢٠٠ ميل ، وتمتد من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى •

أما جبال التاى ، أو جبال الذهب ، فهى مجموعة من السلاسل

•

الجبلية المرتفعة التى تمتد من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، ما يزيد على سبعمائة ميل على امتداد الحافة الغربية للهضبة المرتفعة الواقعة الى الشمال الغربى من منغوليا • ولا يتجاوز ارتفاع هذه الجبال اثنى عشر ألف قدما • ويقع بين سلاسل هذه الجبال سهول شاسعة يتراوح ارتفاعها بين خمسة آلاف وستة آلاف قدم ، ويفصل بينها خطوط تقسيم مياه نهرى أوبى وارتش •

وتقع البامير الى الجنوب الغربى من تيان شان ، وتؤلف هضبة مستطيلة بالغة الارتفاع ، وتلتقى عندها أضخم السلاسل الجبلية في آسيا الوسطى ، وتتألف من أحواض فسيحة مستوية ، ترتفع عن سطح البحر نحو ١٢٠٠ قدم ، وتنحدر انحدارا هينا نحو الغرب ، وتفصل بينها تلال واراضى جبلية ، يتراوح ارتفاعها عن الأحواض بين ألفين وأربعة آلاف ، من الأقدام •

على أن البعد الشديد عن البحار ، فضلا عن الارتفاع ، أسهم في أن يخص هذه الأراضى المرتفعة بمناخ قارى ، شديد الحرارة صيفا ، قارس البرودة شتاء • والمناخ القارى واضح بين الفصول ، وبين الليل والنهار ، والمطر ضئيل • ويقل المطر في أوائل الصيف في النطاق الشمالى ، وفي الخريف في الجزء الجنوبى • غير أن الجفاف يقع في وسط الصيف ، وفي وسط الشتاء • وأشد ما كان من التغير الفصلى ، نلحظه في الأراضي الممتدة صوب الشمال الشرقي • ففي أوجرا Ougra الواقعة بمنغوليا ، تتفاوت درجة الحرارة بين ٣٨ فوق الصفر ، و٤٢ تحت الصفر •

ويستثنى من ذلك هضبة التبت التى تهىء عروضها من الأحوال النباتية ، ما يجعلها تتدرج حتى تصل الى نباتات المنطقة القطبية ، وكذا جبال تيان شان وألتاى التى تؤلف نصف دائرة ، والتى تتسم بمناخ

http://www.al-maktabeh.com

البى ، فيتوافر سقوط الثلج في المرتفعات الشمالية ، بينما تسقط الأمطار في الصيف • فعلى ارتفاع يتفاوت بين أربعة آلاف وتسعة آلاف قدم، تنمو أشجار الصنوبر والشربين ، التى تؤلف نطاقا من الغابات ، تمتد بين الاستبس الجافة الواقعة في سفوح التلال ، وبين المراعى الصيفية الغزيرة الواقعة في الأحواض العليا ، وعلى جوانب التلال التى ترتفع حتى خط الثلج الدائم حيث يندر نمو النبات •

وما تبقى من شمال آسيا يعطيه سهوب عشبية تخبو شتاء ، وتجف صيفا • فالسهوب العشبية التى تغزر في الأقاليم التى يتوافر بها الماء ، والتى تتحول الى صحراء في المناطق الوسطى المعزولة ، تمتد من منشوريا حتى شبه جزيرة القرم ، ومن اوجرا بأعالى منغوليا ، حتى اقليم مرو وبلخ، ومنه تتصل البرارى الاسيوية الاوروبية ، بالبرارى الجافة في ايران وافغانستان •

وفي الشمال تلتحم منطقة البرارى الاسيوية الأوروبية بمنطقة الغابات الشمالية ، التى تتسم بمناخ سيبريا ، وتكسو كل روسيا وسيبريا الوسطى ، حتى الحافة الشمالية لمنغوليا ومنشوريا •

وفي الوسط تتحول الى صحراء في ثلاثة مواطن صحراوية • صحراء كزل قم في اقليم ما وراء النهر ، وقراقوم جنوبي نهر امودايا (جيحون)، وصحراء تكلاماكان في حوض نهر التاريم ، ثم صحراء جوبى التى تمتد في منطقة شاسعة من الجنوب الغربى الى الشمال الشرقى ، من لوب ــ نور حيث تتصل صحراء جوبى بصحراء تكلاماكان ، حتى جبال خنجان على تخوم منشوريا •

والواقع أن هذه الصحارى ظلت منذ عصور التاريخ البعيدة ، تعتدى على منطقة البرارى غزيرة العشب ، فوقوع صحراء جوبى بين شمال منغوليا ، حيث تغزر الغابات عند بحيرة بايكال ، أو سهوب وديان نهرى

ارخون وكيرولين ، وبين جنوب منغوليا حيث سهول الان شان ، وتشاخار ، كان من الأسباب التى أسهمت في زوال الأمبراطوريات التركية المغولية ، ابتداء من أسرة هيونج نو Hiong - nou في العصور القديمة حتى أسرة توكيو Tou - kiuo في العصور الوسطى .

أما حوض نهر تاريم ، وهو تركستان الصينية الحالية ، فان ما حدث من اعتداء الصحراء على البرارى ، جعل له مصيرا خاصا . فاذ لم يتوافر فيه حياة الرعى ، وتعرض دائما لغارات جموع الشمال وسيطرتهم ، فقد اشتهرت واحاته بحياة المدن والنشاط التجارى . وهذه الواحات المتناثرة ربطت بين حضارة الشعوب المستقرة المتحضرة في الغرب ، حيث عالم البحر المتوسط ، وايران ، والهند ، وبين الحضارة الزاهرة في الشرق ، وهى حضارة الصين .

وهذا الطريق المزدوج ، الذى يسير شمال نهر التاريم وجنوبه ، بما يقع عليه في الشمال من مدن توين هوانج ، وتورفان ، وقراشهر ، وكشغر ، وفرغانه ، الى ما وراء النهر ، بينما يجتاز في الجنوب ختن ويرقند ، ووديان البامير ، وباكتيريا ، اعترضته على طول امتداده ، الصحارى والجبال ، ومع ذلك كان كافيا للمحافظة على الاتصال بين الحضارة الصينية ، والحضارة الايرانية . وهذا هو طريق الحرير ، وطريق الحجاج ، وقد سلكته التجارة والديانة والفن اليونانى زمن خلفاء الاسكندر ، واجتازته البعثات التبشيرية القادمة من افغانستان . واستخدم هذا الطريق التجار اليونانيون والرومان ، الذين أشار اليهم بطليموس ، وبذلوا كل ما في وسعهم كيما يحصلوا على لفائف الحرير ، وهذا الطريق هو الذى اجتازه القادة الصينيون زمن اسرة هان في التاريخ القديم ، للاتصال بالعالم الايرانى والشرق الرومانى . على أن المحافظة على تأمين هذا الطريق ، بالغ الأهمية للتجارة العالمية ، لقيت الاهتمام الكبير من السياسة

http://www.al-maktabeh.com

الصينية ، منذ زمن أسرة هان حتى عهد قبيلاى •

http://www.al-maktabeh.com

ويقع الى شمال هذا الطريق ، الذى سلكته الحضارة والديانة ، طريق آخر يختلف تمام الاختلاف ، هيأته الاستبس للرعاة ، وهو طريق لا حدود لامتداده ، ووطأته اقدام لا حصر لها ، وهو طريق المتبربرين • فما من شىء يعترض انسياب جموع المتبربرين النازلين بين نهرى أرخون وكيرولين وبحيرة بالكاش • فاذا كانت جبال التاى الضخمة تقترب عند هذه النقطة من جبال تيان شان ، فلا زال الدرب بالغ الاتساع من شاطىء نهر اميل الى تلال تارباجتاى والى تشوجوتشك Tchougoutchick وازداد اتساعا أيضا بين يولدوز Youldouz ، وايللى ، وحوض ايزيك كول في الشمال الغربى ، ومن ثمّ تمتد مرة أخرى تحت أقدام الفرسان القادمين من منغوليا ، استبس القرغيز واستبس الروس التى لا حدود لامتدادها •

وهذه الدروب الشرقية ، اجتازتها عادة جموع الاستبس الشرقية ، أثناء سعيها للحصول على مراعى في استبس الغرب • واذا حدث في الأزمنة التاريخية الغابرة أن كانت الحركة عكسية ، بأن تدفق نحو الشمال الشرقى ، البدو الرعاة الايرانيون الذين ينتمون للعنصر الايرانى كالسيزيين والسرامطة • فما حدث من استقرار جماعات من هؤلاء البدو في حوض نهر التاريم ، من كشغر ، حتى كوتشا Koutcha ، وتورفان وكانسو Kan - sou ، فمن المحقق أن الحركة اتجهت منذ ظهور المسيحية من الشرق الى الغرب • فلم يكن الايرانيون وحدهم هم الذين فرضوا لهجتهم الايرانية الشرقية في واحات ماصار يعرف بالتركستان الصينية ، بل ان هيونج نو ، المعروفين باسم الهون ، هم الذين أقاموا أول امبراطورية تركية في جنوب روسيا والمجر ، نظرا لأن استبس المجر تتصل باستبس الروس ، التى تلتحم بالاستبس الاسيوية • ثم جاء بعد الهون ،

الأفار الذين ينتمون للعنصر المغولى ، اذ قدموا في القرن السادس ، من آسيا الوسطى ، فارين من ضغط الترك Tou - kue ، ونزلوا في المواضع التى سبق أن نزل بها الهون في روسيا والمجر • وحذا حذوهم الترك الخزر في القرن السابع الميلادى ، والترك البجناك في القرن الحادى عشر الميلادى ، والترك الكومان في القرن الثانى عشر الميلادى ، ثم جاء من بعد هؤلاء جميعا مغول جنكيزخان في القرن الثالث عشر •

أما التاريخ الداخلى للاستبس ، فهو تاريخ جموع الترك والمغول ، التى تنازعت وتخاصمت من أجل الحصول على المراعى الغزيرة• واجتازوا اثناء حركتهم المستمرة لتوفير المراعى لقطعانهم ، المساحات الشاسعة التى هيأت للفرسان كل ما يلائمها من تركيب جثمانى ونوع خاص من الحياة• ولم يحفظ التاريخ الذى يكتبه عادة سكان الحضر ، عن الحركات التى لا تنقطع بين النهر الاحمر وبودابست ، الا النـذر القليل ، وهو الذي يرتبط بالسكان المستقرين • فلم يورد الا الموجات المختلفة التى جاءت من السور الكبير أو من الحصون المنيعة على نهر الدانوب ، تحت ضغط الشعوب القوية ، (أمثال التانونج والسيلستر) •

على أنه كيف نفهم التحركات الداخلية للجموع التركية المغولية ؟ الواقع أنه توالى على المنطقة الشاسعة في قره بالجاسون Qarabalgasson وفي قرا قورم ، وفي أعالى منغوليا ، وحول منـابع نهر أورخون ، كل العشائر البدوية التى كانت تطمع في أن تفرض سلطانها على سائر الجموع، ومن هذه الاسرات الطموحة ، هيونج نو ، (الهون) ، التى تنتمى الى العنصر التركى ، والتى يرجع زمن ظهورها الى ما قبل المسيحية ، ثم سيين بى Sien - pei من العنصر المغولى ، التى ظهرت في القرن الثالث الميلادى ، ثم جاء جوان جوان (الآفار) من العنصر المغولي أيضا ، في القرن الخامس ، ثم توكيو من الترك في القرن السادس ، والاويغور

http://www.al-maktabeh.com

(من الترك) في القرن التاسع ، ثم الخطا (من المغول) في القرن العاشر ، والكرايت والنايمان (من الترك) في القرن الثاني عشر ، ثم جاء آخر الامر مغول جنكيزخان في القرن الثالث عشر •

http://www.al-maktabeh.com

وعلى الرغم من تحديد صفة هذه العشائر ، من حيث انتمائها للترك أو المغول ، وهى التى فرضت سيطرتها على العشائر الأخرى ، فانه لم يتيسر معرفة المواطن الأصلية لهذه الجماعات الكبيرة ، كالترك والمغول والتونجوز • ففى الوقت الحاضر ينزل التونجوز في جماعات صغيرة في شمال منغوليا ، في شرق سيبريا ووسطها ، ابتداء من نهر ينيسى حتى شبه جزيرة كمشتكا ، الى الجزء الشمالى من جزيرة سخالين ، على حين أن المغول يحلون في منغوليا الأصلية ، بينما يعيش الترك في غرب سيبريا وفي تركستان الصينية وتركستان الروسية •

والمعروف أن الترك لم يقدموا الا حديثا الى تركستان ، اذ ظهروا في جبال التاى في القرن الأول الميلادى ، وحلوا في كشغر في القرن التاسع الميلادى ، وفي اقليم ما وراء النهر في القرن الحادى عشر الميلادى • وكان الايرانيون هم الذين يؤلفون أساس سكان المدن ، في كشغر وسمرقند ، ولم يلبث أن اصطبغ السكان بالصبغة التركية • والمعروف أيضا أن جنكيزخان في منغوليا ، قد أضفى الصفة المغولية على قبائل لا شك أنها قبائل تركية ، كالنايمان بجبال التاى ، والكرايت في جوبى ، والأونجوت في تشاقهار Tchakhar

على أنه حدث قبل قيام جنكيزخان بتوحيد كل القبائل تحت زعامته ، أن جانبا من منغوليا كان تركيا ، بل ان قوما من الترك ، الياكوت، يسكنون ، حاليا شمال التونجوز ، في الجهات الشمالية الشرقية من سيبريا ، في حوض انهار لينا ، واندیجيركا ، وكوليما • وما هو حادث الآن ، من نزول هذه الكتلة الضخمة من الترك ، في شمال المغول

والتونجوز ، وفي اتجاه مضيق بهرنج ، وعلى المحيط المتجمد الشمالي ، يوقفنا على المواطن الأولى للترك والمغول والتونجوز .

على أن انعزال هذه الأقوام الثلاثة ، الترك والمغول والتونجوز ، في الوقت الحاضر ، كل منها يعيش مستقلا عن الآخر ، يدعونا الى التفكير في أن هذه الأقوام التى خضعت مجموعة ، زمن العصور التاريخية ، لسلطان واحد ، يصح أنها كانت ، مثلما هو حادث اليوم ، تعيش متفرقة في الاستبس الغزيرة بشمال شرقى آسيا .

ولو اقتصر تاريخ الجموع التركية المغولية على ما يشنونه من غارات، وعلى ما يحدث اثناء انتقالاتهم وهجراتهم من منازعات وهجمات ، لما حوى الا شيئا قليلا . فالحقيقة الأساسية في تاريخ البشرية ، هى ما كانت تمارسه هذه الأقوام البدوية من ضغط على الأمبراطوريات المتمدينة الواقعة على الجنوب منها . وهذا الضغط تطور من اعتداءات انتقامية الى غارات للفتح والتوسع . ذلك أن هبوط الرعاة من منازلهم وارتحالهم ، كان قاعدة تكاد تكون طبيعية ، أملتها الحياة في الاستبس . ولا شك أن أولئك الترك المغول الذين أقاموا في منطقة الغابات ، حول بحيرة بايكال ونهر عامور ، ظلوا متبربرين ، يعيشون على الصيد في الغابات ، وصيد السمك من الأنهار والغدران ، ومن هذه الجموع جورشات Djurtchat حتى القرن الثانى عشر ، ومغول الغابة حتى زمن جنكيزخان ، التى ظلت قانعة بحياتها في نطاق مواطنها المنعزلة ، ولم تكن لديها فكرة عن الجهات الأخرى التى تغريها وتجذبها اليها .

غير أن الحال لم يكن كذلك مع الترك المغول بالاستبس ، حيث كانوا يعيشون على تربية الخيل والماشية والأغنام ، يلتمسون العشب ، ويسير الرجل في اثر قطعانه . وقد فرضت البيئة حتميتها على ما كان لسكان الصحراء والاستبس من عادات وتقاليد . فتوزيع المراعى واقتسام

http://www.al-maktabeh.com

المياه ، حدد مجال طواف البدوى وسرعته ، في فصول السنة • وهذه الحركة المنتظمة للرعاة في داخل حدود مواطنهم ، يصح أن تؤدى بأقل اثارة ، الى الغارات على البلاد المجاورة لحدودهم •

وتزايد القطعان يستلزم الحصول على مراع وآبار جديدة ، نظرا لأن المراعى لا تتجدد وتغزر الا في بطء ، بسبب أحوال الجفاف المستمرة•

وما يكفى حياة القبيلة من مساحات الأراضى لا يكفى لأن تعيش عليها القطعان ، لاضطراد زيادتها • فلم تلبث المراعى أن تضيق بالقطعان والرعاة ، وعندئذ لا بد من السعى للحصول على مراع جديدة • واذا اشتد الجفاف في فصل من الفصول ، وتضاءلت المراعى ، كان ذلك داعيا الى التوسع والغزو • واذا تعرضت المراعى للأفات ، او شحت المياه ، وكان على الراعى أن يواجه المجاعة ، فلا يسعه الا الاقدام على السرقة والنهب ، فلا يستتب السلام في مكان ، يجتمع فيه سكان الصحارى والاستبس والمشتغلون بالزراعة ، فالتاريخ حافل بما كان يقع بينهم من الغارات والاعتداءات والأخذ بالثأر والغزو والفتح •

والمعروف أن البدوى كان راعيا من الناحية الاقتصادية ، وغازيا من الناحية السياسية ، ومقاتلا من الناحية التاريخية • فالحاجة الى المحافظة على المراعى ، تطلبت عادة قيام نظام حربى ثابت • فالأمة ليست الا جيشا في حالة سكون وهدوء ، كما أن الجيش ليس الا امة جرت تعبئتها ، اذ يصحب مؤنه المؤلفة من الماشية والأغنام • وما كان يمارسه الراعى من التدريب المستمر على ركوب الخيل ، والسعى لاكتشاف المراعى والمياه ، واستخدام الأسلحة ، وما يتصف به من قوة الاحتمال ، ومعاناة الجهد والتعب ، كل ذلك جعل منه جنديا بارعا • فجماعات الفرسان وما اشتهروا به من المبادرة الى الهجوم ، جعلت الخطة الحربية تقوم على الهجوم المفاجىء والارتداد السريع ، الذى لا يقابله الا الاستعداد

القوى ، والتعبئة الضخمة ، فالسيزيون في سهوب الدانوب الأدنى ،كانوا من أبرع الناس في الرمى عن ظهور الخيل ، شأنهم في ذلك شأن البارثيين.

وحياة الجموع البدوية في مجموعها ليست الا مدرسة لخلق النظام العسكرى . اذ أن ما تصادفه هذه الجموع من العناء والمشقة أثناء سيرها ، وعند اقامة المعسكر وازالته ، وفي البحث عن العلف والمراعى ، كل ذلك يجرى يوميا اثناء حركتهم وهجرتهم المستمرة . وما درج عليه البدّوى من نظام في سيره ، يضارع ما اتصفت به الجيوش من النظام . اذ يتقدم القافلة عادة ، على مسافة تتراوح بين خمسة وسبعة كيلومترات ، جماعة من الفرسان المسلحين ، يتبعهم سائر أفراد القبيلة ممتطين الأفراس والابل ، ثم يلى ذلك دواب الحمل ، والنساء والأطفال .

ويجرى الحرص عند نصب المعسكر ، على تحديد مواضع للرجال وللأسلحة وللقطعان . بل أكثر من ذلك ، ينتظم جموع الرعاة في جماعات ، لها رؤ سائها ومعاونوهم .

ويتضح من ذلك أن أحوالا جغرافية معينة ، تحكمت بطريق مباشر فيما درج عليه البدو من الارتحال المنظم ،الذى أدى بطريق غير مباشر الى أن يتخذ من النظم الحربية والسياسية ، ما جعل لعناصر الرعاة رسالتهم التاريخية الشهيرة ، الداعية الى الوحدة والتماسك السياسى . فعلى الرغم من أن الزراعة يرجع اليها تقدم المدنية ، فأن أربابها يفتقرون الى ما يختص به الرعاة من الشجاعة ، والميل الى الحركة ، وحب المخاطرة ، واتساع الأفق السياسى ، بينما حاز الرعاة كل هذه الصفات . فاذا اجتمع هذان العاملان ، الراعى المتسلط ، والمزارع الذى يخلد الى السلام ويؤثر العافية ، قامت الحكومات المستقرة عند العناصر الهمجية وشبه المتمدينة .

وما يشهده البدوى الراعى من أحوال مختلفة للحياة ، لا بد أن أثار أطماعه وميوله : فما يتساقط من الثلوج في الشتاء لم يمنع الغابات

http://www.al-maktabeh.com

السيبرية من أن تتداخل في الاستبس ، بينما يؤدى اشتداد الحرارة في الصيف، الى جعل الاستبس امتدادا لصحراء جوبى • فكان لزاما على الراعى أن يلتمس المراعى لقطعانه ، بأن يرتقى مرتفعات جبال خنجان والتاى وترباجاتاى • والربيع وحده هو الذى يحول الاستبس الى برارى غزيرة ، تكثر بها الزهور الجميلة والأبصال الخلابة ، كالسوسن والخزامى • وهو الفصل الذى يعتبره البدوى عيدا له ولقطعانه • على حين أنه في الفصول الأخرى ، ولا سيما في الشتاء ، كان يتطلع الى ايزيك قول ، (البحيرة الساخنة) بالجنوب الغربى ، والى الأراضى الصفراء الخصيبة ، التى يرويها نهر هوانجهو ، في الجنوب الشرقى ، فضلا عن اراضى الوسط المعتدلة الحرارة • ومع ذلك ، فان هذه الأراضى المزدرعة لم تشبع هواه ، ولم ترض أطماعه • فحينما يحتل البدوى الراعى الأراضى الزراعية ، لم يلبث أن يحولها بغريزته الى أراضى جرداء ، أو الى استبس تنمو بها الأعشاب اللازمة للخيل والماشية والغنم •

كان ذلك هو اتجاه جنكيزخان وميله في القرن الثالث عشر ، فحينما تم له فتح الصين ، أراد أن يحول حقول الدخن في سهل هو باى Ho - pei الخصيب الى برارى • فلم يقدر رجل الشمال الحضارة ، الا لما يصدر عنها من منتجات صناعية ، ولما تبذله من مصادر المتعة ، ولما يغريه منها بالنهب والتخريب • فيستهويه مثلا اعتدال المناخ ، وهو أمر نسبى على كل حال • فبينما كان مناخ بكين القارس ، يعتبره جنكيزخان لطيفا ، يدعو الى الدعة ، كان يمضى الصيف بعد كل حملة بالقرب من بحيرة بايكال • وحدث أيضا بعد انتصاره على جلال الدين خوارزمشاه، ان نأى عن قصد بلاد الهند ، الممتدة أمام نظره ، نظرا لأن الهند عند هذا الرجل ، رجل جبال التاى ، ليست الا الجحيم بذاته •

والواقع أن جنكيزخان كان مصيبا في احتقار دواعى الحياة الرغدة،

فحينما أخلد أحفاده الى النعيم في قصور بكين وتوريز في البلاد المتحضرة، أدى ذلك الى تدهورهم وانحطاطهم • على أنه كلما التزم البدوى بروح البداوة ، لم يعتبر المتحضر المقيم سوى فلاح له • ولم تكن المدنية والعمل عنده سوى مزرعه له ، فالمزرعة والفلاح تخضعان لسلطانه ورحمته • فيمتطى فرسه ، ويركض الى الأمبراطوريات المثيرة الواقعة على أطراف بلاده ، يجبى منها ما تقرر عليها من اتاوة ، بعد أن آثرت هذه الأمبراطوريات العافية والسلام ، على حين ينهب المدن المفتوحة ، بعد أن يشن عليها الغارات المخربة ، اذا رفض سكان المدن أن يؤدوا الجزية • فما جرى بانتظام من غارات للنهب والتخريب ، أو ما يقابلها من الاذعان والتسليم بتأدية الاتاوة أو الجزية ، كان القاعدة العامة ، لما كان من علاقات بين الترك المغول والصينيين ، منذ القرن الثانى قبل الميلاد ، حتى القرن السابع عشر الميلادى •

ويحدث في بعض الأحوال ، أن يظهر بين البدو الرعاة ، زعيم شديد البأس ، بالغ القوة ، برع في تخريب الأمبراطوريات المتحضرة ، (وهؤلاء المتبربرون المخربون كانوا على دراية تامة بما يجرى في البلاط الصينى من مؤامرات ، شأنهم في ذلك شأن الجرمان الذين وقفوا على عوامل ضعف الأمبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي) • فيتم الاتفاق بين هذا الزعيم المتبربر ، وبين أحد الأحزاب الصينية لمناهضة حزب صينى آخر ، أو لمساندة مطالب مطرود من العرش ، أو يجرى التحالف مع مملكة صينية لقتال مملكة صينية أخرى مجاورة • فيخرج هذا الزعيم بجموعه وينزل على أطراف المملكة التى تحالف معها ، بعد أن يدعى حمايتها •

وهذا ما حدث لأجيال من الترك المغول ، اشتدت درايتهم وخبرتهم بالحضارة الصينية ، ثم اجتازوا الحدود ، وتربعوا ، دون معارضة ، على

http://www.al-maktabeh.com

عرش ابن السماء (ملك الصين) .

فلم يفعل المغامر قبيلاى خان في القرن الثالث عشر ، سوى أن كرر ما قام به ليوتسانج Lieou - Tsang في القرن الرابع الميلادى ، وتوبا في القرن الخامس الميلادى . على أن هؤلاء المتبربرين الذين اصطبغوا بالصبغة الصينية ، بعد جيلين أو ثلاثة أجيال ، لم يأخذوا من الحضارة الصينية الا دعتها وطراوتها ورذاءلها ، ولم يحافظوا على ما اشتهر به الرعاة من خشونة الطباع ، والشجاعة والاقدام ، وشدة الحذر ، فاضحوا عرضة للسخرية والازدراء ، وأمست بلادهم هدفا لأطماع متبربرين آخرين ، ظلوا على بداوتهم وضراوتهم وعوزهم ، في مواطنهم الأصلية بالاستبس . وتبدأ مغامرة الغزو من جديد . ففى القرن الخامس الميلادى ، ظهر الترك، توبا الذين دمروا الهون Hiong - nu ، وسيان بي Sien - pei بعد تدهورهم وانحلالهم ، فحلوا مكانهم . أما الخطا Ki - tans ، وهم مغول اشتدت صبغتهم الصينية ، وسيطروا على بكين منذ القرن العاشر ، فلم يلبثوا أن أخلدوا الى الهدوء والسلام ، ثم ظهر في شمالهم في القرن الثانى عشر الميلادى قوم من التونجوز ، وهم جورتشان ، اشتهروا أول الأمر بالخشونة والهمجية ، فانتزعوا في شهور قليلة مدينة بكين العظيمة ، غير أنهم لم يلبثوا أن اصطبغوا بالصبغة الصينية ، فركنوا الى الخمول والركود ، حتى دمرهم جنكيزخان ، بعد قرن من الزمان .

هذا ما حدث فعلا في الشرق ، ووقع مثله في الغرب . اذ جرى في أوروبا ، في اقليم السهوب الروسية ، التى ليست الا امتدادا للسهوب الاسيوية ، أن توالى عليها الهون بقيادة أتيلا ، والبلغار ، والآفار ، والمجريون ، والخزر ، والبجناك ، والكومان ، ثم مغول جنكيزخان .

وهذا ما حدث في الدولة الاسلامية ، حيث لم يكن اعتناق الغزاة

الترك في ايران والأناضول ، للاسلام ، الا صورة لما حدث للغزاة الترك والمغول والتونجوز ، عند حلولهم بالصين ، واتخاذهم الصفة الصينية • وما وقع في الصين ، جرى أيضا في الغرب ، اذ صار لزاما على سلاطين الترك أن يتخلوا عن سلطانهم ، لغزاة قدموا حديثا من الاستبس • فمن بين الذين دمروا في ايران وخلفهم عناصر أخرى من البرارى ، الأتراك الغزنويون،والأتراك السلاجقة،والأتراك الخوارزمية،ومغول جنكيزخان، والترك التيموريون، والمغول الشيبانية، فضلا عن العثمانيين، الذين انطلقوا الى أقصى طرف البلاد الاسلامية غربا ، فاحتلوا مكـان السلاجقة في آسيا الصغرى ، ومنها خرجوا للاستيلاء على بيزنطة •

فشمال آسيا يشبه اسكندیناوه في أنه مستودع الأمم ، ومنـه خرجت غارات المتبربرين ، مثلما خرج الجرمان في اوروبا ، وهو الذى أمد الأمبراطوريات المتمدينة القديمة بالسلاطين والملوك • فهبوط هذه الجموع من الاستبس ، وما تبع ذلك من اقامة الخانات والسلاطين في عروش تشانج ــ نجر Tchang - ngar ، ولو ــ يانج Lo - yang وكاى ــ فونج Kai - fong (بكين) ، وسمرقند ، واصفهان ،وتوريز، وقونية ، والقسطنطينية أضحى القاعدة الجغرافية للتاريخ •

غير أن ثمة قانون آخر مخالف للقاعدة التى سبق الاشارة اليها ، وهو الذى دعا الـدول المتمدينة القديمـة ، الى أن تمتص في بطء ، هؤلاء المغيرين البدو ، ويعتبر ظاهرة مزدوجة • كانت ظاهرة سكانيـة (ديموجرافية) من ناحية ، ذلك أن الفرسان المتبربرين الذين يحلون في هذه البلاد المتمدينة ، على أنهم طبقة ارستقراطية ، لم يلبثوا أن يختفوا وينغمروا في خضم السكان ، وأن ينغمسوا في أحوالهم • أمـا الظاهرة الأخرى ، وهى الظاهرة الحضارية ، فان الحضارة الصينية ، أو الحضارة الفارسية ، المغلوبة على أمرها ، لم تلبث أن قهرت الغزاة المتبربرين ، بما

http://www.al-maktabeh.com

من الافتراضات والخيال والأساطير ، عوامل تاريخية . ويتطلب ذلك منه الصبر الشديد ، والدأب المتواصل . فمهما كانت الرواية تافهة ، فقد يكون لها أهمية تاريخية .

http://www.al-maktabeh.com

وليس من اليسير أيضا أن نصل الى نتيجة سليمة ، من الأحداث التى قد تقع فجأة ، أو الوقائع المتقطعة ، فلم يظهر في تاريخ المغول قبل جنكيزخان ، شخصيات بارزة أو زعماء مشهورون .

وهذا الظلام والغموض ، لم يقطعه الا ومضات ، يصح أنها تفيد ، ولكنها في مجموعها تزيد الموقف غموضا ، وليس في استطاعتنا أن نشرح كل الظواهر التى عرضها تاريخ المغول .

على أنه اذا كانت الأحداث التى أسهمت في تقدمهم في الداخل طارئة وليست مستمرة ، بل لعلها اعترضت السير الطبيعى لتقدمهم ، فانه هذه القبائل المتوحشة ، واجهتنا حقائق يستعصى تفسيرها . واذا كانت من ناحية أخرى، اذا حاولنا دراسة الأحداث الخارجية وفحصها ، وانتشار أهمية المغول قد تضاءلت فيما يتعلق بأحوالهم الداخلية ، فان علاقاتهم الخارجية ازدادت أهمية .

ومن هنا كان الالمام بتاريخ المغول أمرا جوهريا ، فلولا تأثيرهم على الجنس البشرى ، خارج حدودهم، لظل المغول في عزلتهم ، وغموض تاريخهم .

ومن المتاعب التى يصادفها الباحث أيضا ، امتداد واتساع الأراضى التى كانوا ينزلون بها ، ولذا كان لزاما على الدارس لتاريخهم أن يمعن النظر في مراعاة ما يجرى بين الشعوب المجاورة لهم من حركات وأفعال . فليس لتاريخ المغول حدود جغرافية ، فقد زالت الحواجز التى تحد من

الترك في ايران والأناضول ، للاسلام ، الا صورة لما حدث للغزاة الترك والمغول والتونجوز ، عند حلولهم بالصين ، واتخاذهم الصفة الصينية • وما وقع في الصين ، جرى أيضا في الغرب ، اذ صار لزاما على سلاطين الترك أن يتخلوا عن سلطانهم ، لغزاة قدموا حديثا من الاستبس • فمن بين الذين دمروا في ايران وخلفهم عناصر أخرى من البرارى ، الأتراك الغزنويون،والأتراك السلاجقة،والأتراك الخوارزمية،ومغول جنكيزخان، والترك التيموريون، والمغول الشيبانية، فضلا عن العثمانيين، الذين انطلقوا الى أقصى طرف البلاد الاسلامية غربا ، فاحتلوا مكـان السلاجقة في آسيا الصغرى ، ومنها خرجوا للاستيلاء على بيزنطة •

فشمال آسيا يشبه اسكندیناوه في أنه مستودع الأمم ، ومنـه خرجت غارات المتبربرين ، مثلما خرج الجرمان في اوروبا ، وهو الذى أمد الأمبراطوريات المتمدينة القديمة بالسلاطين والملوك • فهبوط هذه الجموع من الاستبس ، وما تبع ذلك من اقامة الخانات والسلاطين في عروش تشانج ــ نجر Tchang - ngar ، ولو ــ يانج Lo - yang وكاى ــ فونج Kai - fong (بكين) ، وسمرقند ، واصفهان ،وتوريز، وقونية ، والقسطنطينية أضحى القاعدة الجغرافية للتاريخ •

غير أن ثمة قانون آخر مخالف للقاعدة التى سبق الاشارة اليها ، وهو الذى دعا الـدول المتمدينة القديمـة ، الى أن تمتص في بطء ، هؤلاء المغيرين البدو ، ويعتبر ظاهرة مزدوجة • كانت ظاهرة سكانيـة (ديموجرافية) من ناحية ، ذلك أن الفرسان المتبربرين الذين يحلون في هذه البلاد المتمدينة ، على أنهم طبقة ارستقراطية ، لم يلبثوا أن يختفوا وينغمروا في خضم السكان ، وأن ينغمسوا في أحوالهم • أمـا الظاهرة الأخرى ، وهى الظاهرة الحضارية ، فان الحضارة الصينية ، أو الحضارة الفارسية ، المغلوبة على أمرها ، لم تلبث أن قهرت الغزاة المتبربرين ، بما

http://www.al-maktabeh.com

هيأته لهم من حياة الترف والنعيم ، وفي أحوال كثيرة ، يحدث بعد خمسين سنة من غزو هذه الدولة المتحضرة ، أن تعود الأمور الى ما كانت عليه قبل الغزو ، كأنه لم يحدث شيء ، فالمتبربر الذى اصطبغ بالصفة الصينية أو الايرانية ، لم يلبث أن جعل نفسه حارسا للمدنية والحضارة، ازاء الغزوات الجديدة التي يشنها المتبربرون، ففي القرن الخامس الميلادى، كان تو ـ با Tou-pa التركى ، يعتبر المدافع عن حضارة الصين واراضيها ازاء المغول امثال سيان ـ بى Sien-pei ، أو جوان جوان Jouan-Jouan الذين أرادوا تجديد الغارة على الصين . وفي القرن الثانى عشر ، كان سنجر السلطان السلجوقى هو الذى أقام على نهرى سيحون وجيحون حرسا لدرء خطر الأغوز والخطا على بحيرة آرال ، ونهر ايللى .

وليس تاريخ كلوفيس وشارلمان في أوربا الا ترديدا لصفحات تاريخ آسيا . فما حدث من أن الحضارة الرومانية ، لقيت في نشاط الفرنج بعد أن هضمتهم وتمثلتهم ، ما يجدد قوتها لمقاومة همجية السكسون والنرمان ، تكرر أيضا في الحضارة الصينية ،التى لم تجد لها في القرن الخامس سندا لها ، خيرا من هؤلاء التو ـ با Tou-pa ، لمناهضة الغزو المغولى ، كما أن الحضارة الاسلامية صادفت في سنجر بطلا لمناهضة الترك والمغول . واكثر من ذلك ، كان الترك المغول ، الذين امتصتهم الحضارة الصينية أو الحضارة الاسلامية ، هم الذين حققوا وأتموا أعمال الأكاسرة وملوك الصين .فالسلطان العثمانى هو الذى حقق في القرن الخامس عشر ما كان يطمع فيه كسرى والخليفة ، من الاستيلاء على القسطنطينية . وما كان يراود أسرة هان وأسرة تانج من حلم السيطرة

على كل آسيا ، حققه ، في القرنين الثالث عشر ، والرابع عشر الميلادى ، قوبيلاى وتيمور ، على حساب الصين القديمة ، بأن صارت بكين الحاضرة الأساسية لروسيا ، وتركستان ، وايران ، وآسيا الصغرى ، وكوريا ، والتبت ، والهند الصينية . فالتركى المغولى لم يهزم الحضارات القديمة، الا لكى يجعل آخر الأمر أسلحته في خدمة هذه الحضارات . وهذه الحقيقة ، جعلت التركى المغولى يحكم هذه الشعوب القديمة ، بما كان لهم منذ آلاف السنين من تقاليد ومطامع ، فصار يحكم الصين ، منذ زمن قوبيلاى ، كيما يحقق ما كان للصين من أغراض توسعية في آسيا ، وحكم العالم الايرانى الفارسى ، حتى يدفع آخر الأمر بالساسانيين والعباسيين ، نحو القسطنطينية .

فالترك المغول ، شأن الرومان ، كانوا من العناصر الى تنزع الى السلطة والحكم ، وتميل الى التوسع والسلطان .

http://www.al-maktabeh.com